إثبات معية الله العامة لخلقه

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَقَوْلُهُ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤]، وقوله: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧].).

(الشرح)

ساق المصنف–رحمه الله–هاتين الآيتين، بعد ذكر آيات الاستواء والعُلو، لِيُبين أن عُلو الله تعالى واستواءه على عرشه لا ينافي معيته لخلقه؛ فإنه سبحانه قريب في عُلوه، عليّ في دُنوه؛ فلا تعارض بين كونه سبحانه فوق السماوات العُلى مستويًا على العرش، وبين كونه مع خلقه، إذ أن هذه المعيّة معيّة علم، معيّة بصفات الربُوبية؛ بسمعه، وبصره، وقدرته، واطلاعه، فلا تنافي بين الأمرين. ولئن كان الأمران يتنافيان في حق المخلوق فإنهما لا يتنافيان في حق الخالق؛ فقد يتوهم مُتوهم أن كون الله تعالى فوق سماواته مستوٍ على عرشه، يقتضي عدم علمه بخلقه.

قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}: هذا دليل العُلو والاستواء.

قوله: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}: سبق تفسير هذه الجُمل ضمن آيات إثبات علمه سبحانه.

قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}: هذا دليل المعية؛ فقد جمع الله في آية واحده بين المعية والعلو؛ فلا يُمكن أن يكون بينهما تعارض؛ فإن الدليلين القطعيين لا يمكن أن يتعارضا.

قوله: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى}: النجوى: حديث السر.

قوله: {ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ}: أي: جاعلهم أربعة.

قوله: {ولا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ}: أي جاعلهم ستة.

قوله: {وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ}: يعني أدنى من الثلاثة.

قوله: {وَلا أَكْثَرَ}: أكثر من الخمسة.

قوله: {إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}: قال ابن كثير-رحمه الله-: (حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعِيَّةُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى. وَلَا شَكَّ فِي إِرَادَةِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ سَمْعَهُ، أَيْضًا، مَعَ عِلْمِهِ مُحِيطٌ بِهِمْ، وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِيهِمْ، فَهُوَ، سُبْحَانَهُ، مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ. ثُمَّ قَالَ: {ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: افْتَتَحَ الْآيَةَ بِالْعِلْمِ، وَاخْتَتَمَهَا بِالْعِلْمِ)[1].

أراد السلف، رحمهم الله، بتفسيرهم المعية بمعية العلم الرد على حُلولية الجهمية، الذين يزعمون أن الله موجود في جميع الأمكنة، وأنه مُنبث في الكون كانبثاث الهواء والضياء- تعالى الله عما يقولون- وليس مرادهم أن العلم هو المعيّة، بل ذلك من تفسير الشيء بلازمه، يعني أنه من لازم معيته سبحانه العلم بأحوالهم، كما أنه معهم بسائر صفات ربوبيته؛ من سمعه وبصره وإحاطته ورقابته، ولهذا استدل الإمام أحمد بالقرائن؛ فقال: افتتح الآية بالعلم، وذلك قوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [المجادلة: ٧]، واختتمها بالعلم، وذلك قوله: {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧]. والقرآن يفسر بعضه بعضًا، فقد قال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [التوبة: ٧٨]، وقال: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠].

والآيات السابقة دلت على إثبات أحد نوعي المعية، وهي المعية العامة التي يشترك فيها جميع المخلوقات.

---

[1] تفسير ابن كثير: (٨/ ٤٢).

إثبات معيّة الله الخاصة لأوليائه

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وقوله: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠]، وقوله: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦]، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٨]، وقوله: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦]، وقوله: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩]).

(الشرح)

قوله: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}: جاء ذلك في خبر الهجرة، وذلك أن نبينا، صلى الله عليه وسلم، حين أوى إلى غار ثور مع صاحبه أبي بكر، وأرسلت قُريش الطلب إثرهما، فبلغوا موضع الغار، قَالَ أبو بكر: (كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فِي الغَارِ فَرَأَيْتُ آثَارَ المُشْرِكِينَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا، قَالَ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا)[1]، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ({لَا تَحْزَنْ إِنّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠])[2].

فهذه المعيّة معيّةٌ خاصة، أما المعيّة العامة فإنها تشمل من في الغار، ومن خارج الغار؛ فإن الله معهم جميعًا بسمعه، وبصره، وعلمه، وزاد من في الغار على من خارج الغار أنه معهم بنصره، وتأييده، وحفظه؛ فهذا هو الفرق بين المعيّتين.

قوله: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}: هذا جواب من الله تعالى، وطمأنة لموسى وهارون، عليهما السلام؛ فإنه لما ندبهما إلى لقاء فرعون ودعوته، قالا: {رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى} [طه: ٤٥]، وهو مظنة ذلك، إذ كان طاغيًا، جبارًا، غشومًا، ظلومًا؛ لاسيما أنه قد سبق لموسى، عليه السلام، قتل أحد نفوسهم خطئًا؛ فقال الله تعالى مُطمئنًا لهما: {لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦].

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٤٦٦٣)، ومسلم: رقم (٢٣٨١).

[2] أخرجه البخاري: رقم (٣٦١٥)، ومسلم: رقم (٣٠١٤).

فهذه المعيّة معيّةٌ خاصة؛ تقتضي أن الله تعالى يكلؤهما بعنايته، ويدفع عنهما، وإلا فإن الله مع فرعون ومَلَئه، كما أنه مع موسى وهارون معيّةٌ عامة؛ معيّة الرُبوبية المُقتضية للعلم بالسمع، والبصر، والقدرة، والإحاطة، وسائر صفات الرُبوبية.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}: هذه معيّة خاصة بالمُتصفين بوصفين كريمين؛ التقوى والإحسان، وهذا يدل على أن المعيّة الخاصة لا تقتصر على الأنبياء والرسل، وإن كان لهؤلاء المصطفين الأخيار القِدح المعلّى منها.

والمتقون: هم الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية؛ بامتثال أوامره واجتناب مناهيه، وليس شيء آخر من نسب أو حسب، قال تعالى: {إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحُجرات: ١٣]، وقال: {أَلا إِنّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتّقُونَ} [يونس: ٦٣]؛ فمن اتقى الله وقاه.

والمحسنون: هم المتصفون بالإحسان، الذي هو أعلى مراتب الدين، وقد عرّفه النبي، صلى الله عليه وسلم، بقوله: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [١]، وهاتان أيضًا درجتان:

الأولى: درجة الطلب: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ)، يعني تعبده مُشتاقًا إليه، راغبًا فيه، مُنجذبًا إليه، مُتألهًا له، تعبده بمحبة وولَه.

الثانية: درجة الهرب: (فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) أي: إن لم تبلغ هذا المبلغ فاعبده بخشية وخوف وإجلال، فلا يبدر منك ما يُسخطه عليك.

قوله: {وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}: هذه معيّة خاصة أيضًا لمن اتصفوا بهذه الصفة الحميدة؛ وهي الصبر، والصبر في الدين بمنزلة الرأس من الجسد، وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

والصبر لغةً: الحبس والمنع.

واصطلاحًا: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التسخط، والجوارح عن شق الجيوب وضرب الخُدود، وفعل أفعال الجاهلية.

قوله: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}: "كم" هنا هي التكثيرية، والقائلون: هم الذين يظنون أنهم ملاقو الله، لما برزوا لجالوت وجنوده، للقائلين: {لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٧٧٧)، ومسلم: رقم (٩).

بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ} [البقرة: ٢٤٩]، فكانت النتيجة: {فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ٢٥١]؛ فمن تولى الله واعتصم به، فإن الله تعالى معه، ومن كان الله معه، فليُبشر.

هؤلاء هم أهل معيّة الله الخاصة، ولهذا لا يرفع الله عنهم يده؛ فالمتقون، والمحسنون، والصابرون، والمؤمنون يكون الله معهم في السراء والضراء؛ يُسددهم، ويثبتهم، ويُصلح أحوالهم ،كما قال الله تعالى في الحديث القُدسي: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[1]. هذه هي الولاية الحقيقة، فمن كان لله تقيًا، كان لله وليًّا. وإذا أردت أن تعرف قدرك عند الله، فانظر قدر الله عندك؛ انظر ما يقوم في قلبك من تعظيم الرب، تبارك وتعالى، وإجلاله ومحبته، فإن وجدت خيراً فاحمد الله، واعلم أن لك عند الله منزلة، وإن كان غير ذلك، فتعاهد قلبك وأصلحه.

وخُلاصة هاتين الطائفتين من الآيات، أن معيّة الله تعالى نوعان: عامة وخاصة، وبينهما فروق:

أولًا: المعيّة العامة تقتضي العلم والإحاطة بجميع صفات الرُبوبية؛ من السمع، والبصر والقُدرة، ونحوها، والمعية الخاصة تقتضي النصر، والتأييد.

ثانيًا: المعيّة العامة تكون لجميع الخلق؛ مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم؛ فلا يخرج عنها أحد. لكن ليس معنى ذلك أن جميع الخلق يستشعرون معية الله العامة؛ لا يستشعر معية الله العامة إلا المؤمنون المتقون، أما الكُفار والفُساق فلا يستشعرونها، وإن كانت حاصلة؛ شاؤوا أم أبوا. أما معية الله الخاصة فتختص بالمؤمنين؛ المتقين المحسنين، الصابرين، الموصوفين بالصفات التي علق الله عليها المدح.

ثالثًا: معيّة الله العامة تثمر في نفس المؤمن كمال مُراقبة الله تعالى، وخشيته، هذا أثرها المسلكي. قال أبو العتاهية:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليك يغيب

أما معيّة الله الخاصة فإنها تُثمر في نفس المؤمن القوة والثبات، لأن من علم أن الله معه لم يُبال بكائن من كان، لأنه يعلم أن الله معه فيُقويه؛ ولهذا فتح المسلمون الأمصار وهم فئة قليلة، خاضوا

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٦٥٠٢).

معارك مع الفُرس ومع الروم، ليس فيها تناسب في العدد والعتاد، ومع ذلك غلبوهم بإذن الله، لما في قُلوبهم من القوة والثبات، وهذا أمر يجده المؤمن الصادق، إذا قام لله عز وجل.

تأمل حال الفتية أصحاب الكهف، كما أخبر الله عنهم: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} [الكهف: ١٤]. قد يتهيب الإنسان أن يخوض في أمر من الأُمور من خشية الناس، لكنه إذا طَرح ذلك كُله، وترك المخاوف وقام لله، وجد الأثر والثمرة مباشرة، لأن الله يربط على قلبه.

وتأمل في حال مؤمن القرية، حينما نادى قومه، ودعاهم إلى الإسلام بلسان مُبين كما في قوله تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ} [يس: ٢٠ - ٢٥].

وتأمل في حال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-مُحرر هذه الأسطر، حين ذهب لمُلاقاة قازان، وكان من مُلوك التتار، وكان يهم أن يستبيح دمشق، (فخرج إليه ومعه وفد من أهل دمشق؛ من شيوخها ووجهائها، فقام يُكلمه بلسان قوي، ليس فيه تملق ولا مُحاباة، ويشنؤه ويعيبه ويُقارنه بأسلافه؛ هولاكو وجنكيز خان، وكانا مشركين، قال: وأنت تدعي الإسلام، وتفعل كذا وكذا! وأخذ يُكلمه بثبات، ورباطة جأش، والناس مبهورين من شجاعته، وجرأته، حتى إن بعض من كان معه قال: كُنا نبتعد عنه خشية أن يُصيبنا رشاش دمه؛ ظنوا أنه سيُقتل في مجلسه؛ فعظمه قازان أيما تعظيم، وقربه وأدناه، ولما انصرف من مجلسه، سار في ركابه أمراء العساكر من التتار يُشيعونه، ومن طريف ما جرى أن بعض من كان معه فارقوه، قالوا: والله لا نرجع معك، لو رجعنا معك لا نأمن أن يُرسل السلطان في أثرك من يقتلك؛ فساروا في طريق آخر، ولم يزل شيخ الإسلام يسير مُعززًا مُكرمًا، يُحيط به رؤساء العساكر من التتار، حتى أوصلوه إلى دمشق، وأما من فارقه فعرض لهم قطاع طريق فسلبوهم)[١].

رابعًا: المعيّة العامة من الصفات الذاتية، لأن مُقتضياتها لا تنفك عن الله، وهي الإحاطة، والعلم، والسمع، والبصر. وأما المعية الخاصة فهي من الصفات الفعلية لأنها مُتعلقة بمشيئته وحكمته، بمعنى: أنه إذا وُجد سببها وُجدت، وإذا ارتفع سببها ارتفعت. فحيثما وُجد الصبر والتقوى والإحسان وجدت المعية الخاصة، وإذا فقدت ارتفعت.

---

[١] انظر: البداية والنهاية: (١٤/ ٨٩).

وأما تقسيم المعية الخاصة إلى معية الخاصة، ومعية خاصة الخاصة، فذلك من باب التفاوت بحسب درجة الولاية لله عز وجل.